

خطرات في السياسة والتاريخ

خطاب ألقاه اللورد جون مورلي — John Morely — في صيف سنة ١٩١٢ بصفته العميد الاكبر للجامعة مانشستر بانكلترا .

اللورد جون مورلي سياسي من اقران غلادستون العظيم ومن ابطال السياسيين الذين اشتركوا في تسوية المسألة الارلندية في خلال القرن التاسع عشر . وهو فوق ذلك كاتب من اكبر الكتاب وأديب من أحصاف الادباء . مال الى درس الادب الفرنسي على الاخص ، وفاز فوزاً عظيماً في الترجمة عن حياة الانسكلونيين ورجال عصر النهضة التي سبقت الثورة الفرنسية ، فكتب في ديدرو كتاباً في جزأين ، كذلك كتاباً في روسو في جزأين ، كما ترجم عن حياة فولتير وتيرجو وكوندورسيه وفوفينارج وغيرهم . وله في أوغست كونت مقالة في أربعين صحيفة تعتبر من المراجع الهامة في فلسفة هذا الرجل العظيم . وقد عني الأستاذ محمد رفعت أستاذ الآداب بمدرسة فؤاد الاول الثانوية بترجمة خطابه هذا الذي نفتبط بان ننشره على صفحات العصور قبل ظهوره مطبوعاً عما قريب

— ١ —

الجامعات وتكوين مزاج سياسي للفكر — لجنة الدفاع الامبراطوري — الجو والخلق القومي — بعض أسباب التحول الاجتماعي — المشاهدة الدقيقة بدء التفكير — قيمة الخلق الجامعي — المثل العليا وتحقيقها — الوهم الشريف والصراع المانوي — اساءة استعمال المدلولات أساس الارتباك — مثل أمريكي — كلمات بسيطة مثار مشاكل حادة — الحرية الدينية — أشكال الحكومة

الجامعات وتكوين مزاج سياسي للفكر

حينما سنحت لي الفرصة السعيدة ان أقف بينكم منذ شهور قليلة ، عن لي ابدا

بعض ملاحظات عن الحقيقة الناصعة التي تثبت ان الديموقراطية في معرض مناقشاتنا اليومية، معناها الحكومة تعمل مباشرة بواسطة الرأى العام . كما أثبتت الاهمية القصوى التي تحدها هيئة كهذه الجامعة أن تعتبر شطرا من وظيفتها المساعدة على تكوين طبائع الفكر والمزاج التي يترتب عليها ، مقرونة بمعرفة الوقائع الصحيحة ، وسلامة الرأى . وقد عن لى الآن أن أضرب على نفس النغمة وان أقول شيئا فى السياسة والتاريخ ، وان أصيب هدفين بحجر واحد ، واستميج رحابة صدركم لأنى لا أعرف الا القليل من التاريخ . أما عن السياسة فقد يظن البعض ان معرفتى بها تفوق الحد المناسب، وان درايتى بهاليسست عن خطأ . فان هناك جذورا للشروا واضحة بعض الوضع . ومن السهل أن تفسد السياسى والمؤرخ من المعاصرين . وقد يمتد ضررها للوزير أو الناخب فى عصرنا الحاضر ، بل والى كل من يتصدى لتفسير وقائع الماضى . واحدى هذه الشروا تفكك الفكر ، ثم ضيق مدى البصيرة .

هذا فضلا عن نواحي كثيرة أخرى من الضعف . واتمم تعلمون ، أو على الأقل تسمعون ، عن اسوئها وهى الخول والتبرم والتخرج والتسويق وعدم التماسك بين الآراء ، والنفور . وقد أدرجت الأخيرة ضمن النقائص اذ ليس بمنقصة ان يكون أولى موافقنا نحو الآراء الجديدة موقف الاستعداد والقبول للاستماع ، لامناصة العدااء والكفاح الجدلى . فالعقلية السمحة لا تعوق محبة الحق . بيد أن الحياة قصيرة وهناك حدود للصبر على آراء الدجاجلة التي تثبت كالطفيليات . وبلذلى أن أذكر انكم لم تنسوا بعد الروح التي أملت هذه العبارة على سينيوزاء . وقد ذكرت لكم فى خطابتى الأخيرة اذ يقول : . حينما وجهت عقلى لدرس السياسة بالدقة التي كنت اعالج بها تفهم الرياضيات ، كنت أجهد نفسى كل الجهد كي لا أسخر من أعمال البشر ولا أتبرم بها ، أو اتضجر أو اغضب ، بل لافقها ، وكان يعنى بذلك النظر الى دوافع الشعور الانسانى من حب وكراهية وحسد وشفقة وحب للطموح ، لا كذائل فى الطبيعة البشرية . بل كخواص وصفات فطرية فيها لاصفة بها لصوق الحرارة والبرودة والصواعق والعواصف بالهواء والسماء .

ظواهر الزمن

ومن هذه البداية . ومن تبيان مزاج زماننا ، ندرج إلى التطبيق والمناسبات . ففى

مقدور كل ناقد مفكر، متى شاء، أن يصور بعض ظواهر هذا الزمن في صورة مروعة واضحة الحدود كل الوضوح. فلنعمن النظر فيها، فقد وصفوا القوة السياسية كقوة محصورة في أيدي جمهور هائل متنقل من المنتخبين، لاتعنى إلا القليل بشئون التاريخ والتقاليد. وقد يتساءل الرجل العادي المنهمك في كسب عيشه ما قيمة التاريخ لي؟ ما يعينني منه؟ ويحذروننا من أن الديموقراطية ستلحق في وضع برنامجها بنفسها. فبشكل الأعضاء والوظائف التنفيذية تتباه الآن تغييرات قديحفي علينا شطرها. بيد أنها عميقة بعيدة الأثر. ومجلسا البرلمان في دور تحول اساسي تحت نظرنا، ولم تصبح هيئة الوزارة، وهي حجر الاساس في مأمن حريز من عوادي الزمن بالنسبة لحجمها وامتيازاتها. فنظام الاحزاب، هذا النظام العظيم السليم، يقال انه ذائب متحول الى جماعات وهيئات متآلفة. وقد حول نمو مصالح خاصة كل يدعى لها نصير من الوزراء بمثلها، هيئة الوزارة الى اسم جمع لا يصلح كل الصلاحية لتركيز الجدل والمناقشة اللذين كانا مستطاعين حين كان "لبت"، "Pitt" ستة وزراء ثم اصبحوا سبعة. ولبيل Lord Peel اثني عشرة ولغلاستون Gladstone اربعة عشرة. في حين ان عددهم الآن يقرب من العشرين.

لجنة الدفاع الامبراطوري

وقد ضمت الآن هيئة من الاختصاصيين الخبراء لهيئة مختارة من الوزراء لوضع قرارات ونتائج في شئون الدفاع الحربي والانفاق على الشئون العسكرية. وهذه النتائج ولو انها اسما للاستشارة والاستشارة لا غير، الا انها بطبيعة الحال لها من الاهمية والاعتبار ما يؤثر حتما في حكم هيئة الوزارة على الامور ومسئوليتها. وفوق ذلك فجلوس زعيم الحزب المعارض في هذه اللجنة الهامة، اشارة ظاهرة الى انتقال الروح الحزبية في اعتبار الشئون الحربية والخارجية (لان كلا من هذين الشأين متوقف ضرورة على الآخر) وسحب هذين من ميدان الخلاف والصراع الحزبي.

وليس ذلك اول مثال في تاريخنا لتحول هائل بطيء صامت في نظام امبراطوريتنا غير مدون في وثيقة او مصوغ في شكل تفنين منظم. فمن المعروف عند الجميع خطه السير وليم تمبل W. Tumpell المشهورة في زمن شارل الثاني (ولو انه لم يفهم احد مداها تماما)

وقد يرى بعض النقاد ذوى البصيرة ، شبه رجوع لمشروع تمبل ، فيما يعتبرونه تحولا بطيئا فى تشكيل هيئة مجلس الوزارة ، بحيث أصبحت كمجلس شيوخ أعلى الامبراطورية مع قيد واحد ، وهو الارتكاز دائما على أغلبية مجلس النواب . وهذا شرط حيوى بعيد كل البعد عن تصور عصر تمبل ، وعقليته . وهناك عنصر هام يجب أن لا يفوتنا ولو فى لمحة عجلي كهذه فده يلاتنا المستقلة وراء البحار Dominions بدأت تطالب مبدئيا بحقها فى الاشتراك فى إدارة دفة شئون الامبراطورية . فى حين أن الحركة الأخيرة ، وليدة هذه الرغبة (وهى تعديل الاشتراك فى النفقات البحرية) لم تسفر عن نتيجة حاسمة

الجو والخلق القومى

وأهم من التعديل فى الآلة الحكومية ، دلائل التغيير فى الجو القومى . وقد تكون هذه الدلائل سطحية مؤقتة - وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بصحة ذلك - فانه ما من شئ أبعد على التأكىد فى استعراض أحوال العالم الحديث من ظاهرة إن الخلق القومى أبدا الأشياء تغيرا وتحولا فى أسسه وقواعده . بيد أن البحث قد كشف لنا عن تزعزع الايمان فى اعتبار القانون كقانون ، والانحراف عن المنشآت القديمة المتوارثة كشئآت حتى أن المحامين الأقوياء الحجة قد يستعملون لغة تم عن اعتبارهم القوانين كمنسج من غزل العنكبوت .

والاتفاقات المقررة بين الهيئات الصناعية ليس لها أحيانا من القيمة أكثر مما لحبال الرمل . وليس هذا التحول بقاصر على انجلترا وحدها . وينبثنا المفكرون من الأمر يكيين عن مثل هذا التيار حتى فى بلادهم ولو ذكرنا مثلا أن قيام العدالة ونفاذ القانون على الجميع عماد كل الحكومات المتعدية ، فمن الداعى إلى العجب أن نسمع رسالة الأمريكيين بمن تقلدوا وظائف تضطلع باسمى المسؤوليات ، ينددون بحرارة بتنفيذ قانون العقوبات كسبة لبلادهم ، ويعترفون ان نظام تعيين القضاة مدى الحياة عندنا ، خير من نظام القضاة المعينين فى بلادهم ، او من جهة أخرى يطلبون حق الاستئناف لاستثناء شعبى ، ضد قرارات محاكم الدولة فى المسائل الدستورية ، وإقالة القضاة الذين أصدروها . وفى كلتا الحالتين ، فإن ما آل ذلك انهيار أسس النظام القضائى . ولئن

كان أضعاف الثقة في برلماننا شيء مخيف ، فإن القضاء على الثقة في محاكنا أمر لنا ان نكون منه اكثر خوفاً واشد خشية . وليس من الصواب ان نقول ان الحس بالاهتمام بالسياسة والتطلع الى شئونها وواجباتها ، قد ضعف وتضاءل !!!

إن الواقع يكذب ذلك . فالشعور بالتكاليف السياسية ، إذا كان معياره عدد المشتركين في عمليات الانتخاب العام ، قد أصبح أشد قوة بدلا من أن يؤول إلى الضعف . والاحساس بالواجب الاجتماعى (وهذا احساس مغاير تماماً للشعور بالتكليف السياسى) قد نما نماء كبيرا ، من حيث القوة والمدى . وقد يعرف الجميع أن « سايس » أحد رجال الثورة الفرنسية ، نشر قبل انفجار الصاعقة على فرنسا سنة ١٧٨٩ رسالة من أقوى ما كتب عنوانها « ما هي الدولة الثالثة ؟ هي كل شيء ! ماذا كان شأنها في عالم السياسة حتى الآن ؟ لا شيء ! ماذا تطلب ؟ تطلب أن تكون شيئا . ويحذرنا الآن ناقد بصير ، أن وراء الدولة الثالثة دولة رابعة وخامسة قد نهضت ، ويجب أن يعمل لها حساباً . فالمرأة التي لم تكن شيئا وتطالب الآن بكل شيء ، سيكون لها بعض الشأن في الغد » (١)

بعض أسباب التحول الاجتماعى

وسيتساءل القادرون على التفكير الجدى الصحيح ما هي الصلة الدقيقة (إن كان هناك صلة) بين التغيرات المحيرة للأفكار التي تجرى الآن أمام أعيننا ومثيلاتنا الخمس ، في نظام حياتنا القومية وأفكارنا خلال نصف القرن الماضى ؟ — وهذه التغيرات هي — أولا :

نقل السلطة السياسية الغالبة من أيدي ارسوقراطية وراثية مؤسسة على التملك العقارى ومن الطبقات المتوسطة إلى كافة أفراد الأمة جمعاء . وثانياً : انتشار نظام التعليم الاجبارى في طول البلاد وعرضها . وثالثاً : زوال دعاوى رجال الكهنوت بعد أن حلت محلها مرونة غريبة تغلغل الآن في كافة أوضاع العقائد الكهنوتية ورموزها ومعاييرها . ورابعاً : اعتلاء العلم والروح العلمية في أيماننا هذه على الأقل ، على عروش الأدب والفن . خامساً وأخيراً : اتساع أفق تصورنا للدولة اتساعاً عظيماً . ويلحف الجميع في

طلب استخدام الدولة كل السلطات والواجبات التي في يدها . وإحدى نتائج هذا التقدم الأخير مرتبطة بالتحول في نظام مجلس الوزارة الذي أشرت إليه ، إذ يؤول إلى اتساع الأعمال المصلحية التي يشرف عليها الوزير . وذلك مما يجعل مهمة المداولة العامة في مختلف الشئون أشق أداء أو مستحيلة التحقيق

المشاهدة الدقيقة بدء التفكير

ومن السهل أن تصور أن توافق الظروف الممتعة للمشاهد ، المحيرة للفكر ، المثيرة للعادي من الناس والثامها وتلاصقها بهذه السكيفية البارزة ، لا محالة آيل إلى تكوين عناصر تحدث أزمت ومازق يصعب الخروج منها . إلا أن الخبرة الواسعة التي جنيها من تاريخنا القومي ، قد دلتنا على أن أسلم الأشياء مغبة ، وأكثرها سدادا وهدي ، فيما يتعلق بكل الجماعات التي تتكلم بالانجليزية ، أن لا تسارع إلى تصديق عبارة « جون بانيان » - « إن الهوى سيتغلب على كل شيء في زماننا » .

فلنضرع إلى الله أن يهبنا الخلاص من الغلو ، وأن يهبنا روح التوازن المصحوب بالحدز التي هي من أهم الصفات الفاضلة بين الحصيف والسخيف . ويحمل بكل من له يد في بناء المستقبل أن ينقش على مخيلته كلمات أول عالم استخدم الطرق العلمية للحكم على الشئون الاجتماعية إذ يقول « مالتوس Malthus » عن نفسه « أن السكان يس في حالة من المزاج الفكري بحيث يجد الطرق التي تبتر لتخسين حال المجتمع في المستقبل خيالية خضة » بيد أنه ليس له من قوة التسلط على فكره ما يمكنه من الاعتقاد في كل ما يميل إليه دون مشاهدة وتحقيق ، أو تمتع عن تصديق ما قد يبدو جافا بغضا ، إذا اقترن البرهان والدليل على صحته . وهذا هو المزاج الفكري الذي نأمل نموه وانتشاره في أواسط جامعاتنا .

قيمة الخلق الجامعي

إن مناقشتنا الحالية للأسباب والنتائج في المسائل الاجتماعية يهيئ لنا مادة شيقة طريفة للزراع الحزبي والتراشق بمصطلح التسفيه الجدلى . وليس ذلك في موضوعنا ولا هو مجد لنا ، أو جدير يبحث ناقد حصيف في أيامنا هذه يبحث عن التقدم في قوة اجتماعية حديثة في الكم إن لم تكن في الكيف . وهي ما يسمى التحالف الحديث بين العلم البحث والصناعة (١) .

والآن لا يمكننا أن نكهن عن مدى هذه القوة الجديدة. فإن كل ما تكتسبه من عزم ومضاء، يجب أن يكون مركزه هذه الهيئات التعليمية العظيمة أي «الجامعات» ويجب أن تكون هذه أعضاؤها الرئيسية، وأن روحها الكامنة، وقوتها الروحية، هما اللتان يقوداننا. وعليهما نستند في سيرنا إلى الأمام، فضلاً عما تقدم لنا من حكمة وإرشاد. وقد اعتبر جهازة المؤرخين، الجامعات، إحدى المؤسسات الرئيسية في القرون الوسطى. كالحكمة بواسطة المحلفين والمجالس النيابية. وكان ذلك دون تردد. فتأثير الجامعات والمدارس العامة التي تغذيها في نظام معاهدنا الأخرى، وسيرها، بين هائل. فقد كانت عوامل رئيسية في تكوين السياستين، المدنية، الدينية، وقد كانت أحياناً عوامل للظلام. كما كانت مبعثاً للنور. وكانت أحياناً كذلك، وفي ظروف عدة. مرآة التغرض الجامد الوثيق. والأوضاع التقليدية الصيانية، وذبول النظم الاجتماعية البالية. عن أن تكون المنائر الوضاعة تشع النور فيما حولها. وتضيء هذه الشعلة المقدسة: ألا وهي حب الحقائق الجديدة التي لا تنبت البتة إلا في فضول الشباب. وليس من المحتمل أن تفتقر جامعاتنا الحديثة لقوة لها مثل هذا المدى الهائل والأثر العميق. ولو أن أوضاعها في تحول سريع وقد قيل صدقا. «إن العالم الممتاز هو الذي يحكم العالم دائماً» — وهذا القول أكثر صدقا وصواباً مما يرى الناس، حتى في بلاد كبلادنا قل فيها كثيراً نفوذ الأساليب الأرستوقراطية. في حين أن امتيازات العالم الممتاز في الطبقة الاجتماعية. يجب أن تخضع من الآن للعوامل التي تكون المزاج العالمي. وقوة الحكم ومدى الاهتمام بالشئون العامة في سائر كز العلم والتعليم بجامعتكم. فإن بث تعاليمها ونزعاتها بما يكسب الجدل في الشئون العامة لونه وطابعه الخاص. وسوف يقلل من عدد هؤلاء الذين يدعون أن لهم آراء، وهم في الحقيقة خلو منها. ومهمة الجامعات، فضلاً عن تلقين علوم الخاصة، أنها معقل العقل والإدراك وحصنهما الحصين. وأن أعداء العقل الالءاء، رغم الأسلحة الجديدة والرموز المستحدثة والوجود المستعارة، لهم على ما كانوا عليه في كل زمان ومكان.

وسوف أوفر عليكم تلاوة سجل نقائص الإنسان مما أسهبت الكلام فيه آنفاً، ومن الأطراف الأمتع أن نحول وجهنا الشطر الآخر، لناحية قوة الإنسان (لا صوب

ضعفه) نحو الانصاف والصراحة، والهمة والمثابرة والاحسان والنزاهة، في خدمة الأغراض العامة، والاقدام دون سبق الوهم أو الافتراض، وكل الصفات النادرة التي ينقشها الاصدقاء الاوفياء على لوحات قبور اصدقائهم. وأن مدى هذه الصفات لواسع وحافز للهمم.

ومن الحقائق المفيدة التي يجب أن يبحث الشعب على ادراكها، خصوصاً في ظل الحكومات الشعبية، أن الزمن وتحول الجو السياسي، يعملان دائماً على الصاق معان ومدلولات مختلفة لنفس الآراء والالفاظ القديمة. وقد ألفنا أن تتقدم إلى المعامع الكلامية ونشتبك في الحروب الجدلية، كما لو كانت الاعلام والشارات التي تقاقل في ظلها. والالفاظ العنيفة التي تتراشق بها، كل هذه رموز ومدلولات على القضايا القديمة. وليس ذلك إلا مظهر واحد لوجوه هذا الزمن المتغيرة. وقد اسلفت الكلام عن ضيق مرامي الفكر ومطارح العقل، وأن بصيرتنا لتضيق حقاً لو اغفلت التأثير الذي للظروف الخارجية في شئوننا — من خريطة أوروبا الجديدة — إلى التغيير في توازن القوى المقاتلة ومحكم العدل الدولية في لاهاي، والتعاريف الجركية وقناة بناما وكل التيارات الغربية التي يسابق بعضها بعضاً بسرعة هائلة وسط العوالم المتغلبة — عوالم لانسان الابيض والاسود والاصفر والاسمر.

المثل العليا وتحقيقتها

يسلم أكثر الناس تعصبا لمبادئهم، أن من أصعب الصعاب الوصول إلى الحقيقة. ألا أننا نتساءل هل هناك ما هو ادعى لاثارة الغضب أكثر من الرأي السديد؟ فقد يكون فيه خراب الصحيفة اليومية، كما أنه هو الذي يكتب حدة المناقشة. وقد يقضى على فرصة التبريع في كرسى الوزارة. وان لم يكن صاحبه حاذقاً فقد يبعث في نفوس المنتخبين السآمة والضرر. وسبب ذلك في غاية البساطة. فالرأي السديد لا يفيد إلا القليل أو لا يفيد مطلقاً في انهاء الاعمال. وقد قال الحكيم «هاليفا كس» Halifax «من لا يترك شيئاً للصادقات لن تزل قدمه إلا في مواطن قليلة. بيد أنه لن يأتي من جديد إلا بالنذر القليل،

وكما قال سليمان «من يفكر في الرياح لن يبذر، ومن يتطلع إلى الغيوم لن يحصد، وقد يكون الاعتدال أحياناً لفظاً مطلقاً للتردد، وليس من صفات القاضي المزاج

لحزبي . ويحسن بكل انسان أن يرى أن لمعظم المسائل وجهين ؛ ولو أنه من دواعي
الاسف في هذا العالم العملي أن لاتأكد يوماً ما هو جانب الصواب ، ونظل حيارى
مترددين ونحن مفتقرون إلى الرجال ذوى البطولة وشجاعة الرأي ، الذين لاتغلب
عندهم آلاف الحقائق إذا تعارضت مع فكرة واحدة راسخة .

والامم سعيدة مادامت الفكرة السائدة تستند على ثلاث حقائق أو أربع ،
لها من القيمة والوزن أكثر من آلاف هذه الحقائق متجمعة . ويرى بعض النقاد
أولى البصيرة أن التاريخ حافل بالثورات البركانية تقذف اللهب والحجم ، ولاتترك ظاهراً
إلا الطمي المتجمدة .

وإني ، مع الاسف . لعلى دراية تامة بالاسلوب العقلي في الفلسفة . هذا الاسلوب
المعوج القائم على الغلو ، والذي لايدع للتصور والتخيل سيلاً . الاسلوب الذي
يتشكك في كل عاطفة ويزدري بكل التقاليد ، ويقوض أسس الماضي ، بل وكل ماهو
قائم على عقيدة الجماعات ، والثقة في حاضرنا . في حين أن الغلو في التبرم والتضجر
ازاء الحركات الفكرية التي قد تسفر مع الزمن عن نعم وبركات ، كمياه النيل المنحسبة ،
لهو السخف كل السخف . فسوف تهبط مياه هذا الفيضان ، وسوف يبقى لنا محصول
يستحق الاعتبار ، جني للجنازين

أنوهم الشريف والصراع المنايخي «المانوي»

إن النفوس المتهبة بالحماس لها مساوى . مشتركة في عصر طموح وتطلع الى السمو . وانا
لأعرف كل مساوئهم . فهاسرعهم الى الابتداء حيث يجب الاختتام . وتحت تأثير وخزات
التفكير في مساوىء العالم وشروعه ، يغمرهم تيار التبرم الشريف الى الرغبة في رفع
هذه الشرور وتقليلها وتخفيف وطأتها .

وقيل أن تبجر بهم سفينة الآمال ، يؤكدون لك أنهم قد رأوا انجما جديدا يسبح
في سماء افكارهم ، وانهم قد وصلوا حقا الى بر السلامة — الى أرض الميعاد — ففكرة أو نظرية
يفترض صحتها بادية ذى بدء . وتختمر مستقلة عن كل تجربة وعن كل شواهد وأدلة ،
يسبل عليها بلا روية جلباب التقديس الذي لا يكسو الا المبادئ المقطوع بصحتها .
فالآمال الشريفة والحماسة الفياضة تحل محل البحث العقلي ، وتمحيص الآراء ، فتراهم
يسارعون الى استغلال كل حقيقة وظرف يرونه في مصلحتهم ، ويتعاملون عن كل اعتبار

آخر. فتعصبهم للاوهام رائد هم ، وهم ميالون الى الغلو، وميزان الاعتدال عندهم فاسد. محتل . ولو كان معنا بعض ساسة الاحزاب للاحتظوا انى في هذا المكان مضطر الى الاسهاب فى الكلام عن النزاهة السياسية لدرجة التحمس والهوى . ولن يلوموننى فى القول بان بعض مساوىء الطرق السياسية مثل التى اشرت اليها — كاحلال الوهم الشريف محل الاستنتاج الهادىء — لفاشية بين المتحمسين من المحافظين تفشيها بين جماعة الخياليين من الاحرار . ولن يختلف معى أحدهما . كانت عقيدته الحزبية فى القول بان من الحاجات الماسة فى عصرنا هذا السعى الحثيث فى تنظيم الرأى السياسى وتنسيقه و ايجاد صلة أوثق وامتن بين المثل العليا والحقيقة

وليس فى هذه الاعتبارات ما يدعو إلى الأمل والأقدام إلى أن ينقلوا ضعيفى الفكر ضعيفى الايمان ، قليلى التحمس . فالثورة الفرنسية لم تحقق الاغراض التى كانت ترمى اليها ، وهذا أيضاً شأن حركة الاصلاح الدينى . أما المسيحية فمن أشهر الأقوال المأثورة فى القرن الثامن عشر « إن المسيحية جربت وفشلت تجربتها ، وبقي أن نجرب ديانة المسيح ، ولم تبل جدة هذا القول للآن .

وما زال الكفاح المائخىء — المائوىء — (١) بين الخير والشر . والخير والآخر . يتجدد فى أشكال وأوضاع شتى . فثلث الأحياء يدينون بالمسيحية — منهم ٢٤ مليوناً من أتباع كنيسة روما و ١٥٠ من البروتستانت و ١٠٠ من أتباع الكنيسة اليونانية و بينا اليهود أقل الأديان عدداً (نحواً من عشرة ملايين) فلهم من النفوذ الهائل فى سياسة أوروبا ما لا يتناسب البتة وعددهم .

على أن علاقة المعتقدات بوجوه جديدة من المثل الاجتماعية العليا لتنفذ إلى كبريات المسائل . ويمكننا أن نفكر فى هذا البحث الطريف وهو : ما نسبة الآراء التى بها يعيش الناس وهى عمادهم فى الحياة ، مع ما يقبلون أن يكون موضع التسامح والمناقشة إذا خلوا إلى عقولهم ؟ وكم هى تلك الآراء التى هى موضع التقديس عندهم . بحيث يتعصبون لها كل التعصب وتسمو لديهم فوق كل بحث ؟

وهناك بشائر تبعث على الأمل فى أن المزاج الفكرى ، الذى له من الاستعداد

(١) المائخية أو المائوية ديانة « مانى » وأساسها الفكرة الثنائية الفارسية القديمة فى أن هناك قوى الخير ومثلها الشر — أى عبادة الخير والشر وعبادة الشمس كمصدر القوى والخير

ما يحدوه إلى تجربة كل شيء ، والتمسك بنواصي ما ثبت على التجربة والامتحان ،
سوف يسود .

أساءة استعمال المدلولات أساس الارتباك

ولن يضيرنا أن نهضم هذه الفكرة السديدة للفيلسوف جون لوك : « إذا أنعم أى
إنسان النظر فى الاخطاء والترهات وضروب الارتباك الفاشية فى العالم بسبب سوء
استعمال الألفاظ ، فسيجد بعض السبب يدعو إلى التشكك : هل اللغة كما استعمالها
الإنسان للآن قد أدت إلى تحسين المعارف بين البشر أكثر مما عاقت تقدمها ؟
وإذا كانت هذه الفكرة مما يدعو إلى التشاؤم فى كل زمان ، فكم تبحث فينا من
القلق والجزع فى زماننا هذا . حيث علينا أن نواجه شتى المسائل ؟ وكم يترتب على
سوء استعمال المصطلحات والمدلولات السياسية من الاخطاء والارتباك ، وما يتبعها
من الآراء التى ما هذه المصطلحات إلا رموز لها .

وماذا يكون شأن المحامى فى محاكم العدالة إذا ترفع فى قضاياها بألفاظ وأدلة مفككة
لا ارتباط بينها ، وتجاهل السوابق التى تنطبق على قضيتها ، وأهمل تسلسل الفروض
والنتائج ، وسارع إلى المساواة بين المراجع قويمها وضعيفها — مما يجده خير الناس
بيننا كافياً كل الكفاية فى ميدان السياسة ؟

وهل هناك ميدان آخر غير السياسة تجتمع فيه الأصنام التى أشار إليها « يكون » Bacon
فى وثام وأنتلاف — أصنام (١) المسرح والطائفة والسوق والكهف ؟ ومنذ خمس
وعشرين قرناً ندد أحد كبار المؤرخين الاغريق بجهل البشر وأهمهم الحقيقة فى كلمات
خالدة — قال تيوسيديد :

« إن الناس لا يميزون — فهم يقلدون بعضهم بعضاً دون تجربة . وحتى فى
المسائل اليومية التى لم تضعف من ذكرها الأيام ، نرى اليونانيين أسرع ما يكونون
جميعاً إلى الزلل . فما أقل ما يجهد الناس أنفسهم سعياً وراء الحقيقة ، وما أكثر ما
يسارعون إلى قبول أول شيء يصادفهم »

(١) هذه الأصنام هى رموز أخرجتها مفكرة بيبكون (وهو من أحد الأذهان التى برزت بين البشر)
فضم المسرح رمز على الوهم الخلاب لدى يتسلل إلى العقل مكان الحقيقة ، وضم الطائفة هو التعصب الأعمى
للجنس أو الطائفة أو القبيلة أو الفئدة . وضم السوق هو الاوهام الفاشية بين السواد من أفكار ومطامح خلافة
يبهرك ظاهرها بيد أن حقيقتها لا تخرج عن الخيالات . وضم الكهف هو أوهام المعتزلين النساك الزاهدين
فى العالم تجاهلا لطبيعة الإنسان والبشرية وضعفها ونقائصها يرمون إلى الكمال المخفى

وقد أوردت صحيفة امريكية مثلاً يوضح تمام الوضوح هذه الملاحظات . فيقول الكاتب إن عدد المسائل التي هي لزام على الشعب الامريكي أن يكون له رأى مستنير فيها ، مما يحير الالاب . خذ إحداها ومن أكثرها تشعباً — كيف نعالج مسألة الاحتكارات (Trusts) ؟ كيف السبيل إلى تفهيم السواد بالضبط ما هي النتائج القانونية والمالية لقرار المحكمة القاضي بحل شركات احتكار الدخان ؟ إذ يرون كبار رجال القانون في خلاف يتناول أساس المسألة

ويسمعون السياسيين يشددون التكثير على معارضتهم . ولا يمكن أى انسان ان يدعى جدياً ان مشا كل إيقاف شركات الاحتكار عند حد ، وتنظيم طرق احتكارها ، مما فى مقدور ما يقال عليه . حكمة الشعب ، التغلب عليه . اذ كل ما فى استطاعة الشعب تكوين آراء جلية راسخة رسوخ العقائد عن المبادئ الاساسية التي يرتكز عليها الموضوع كله . ويمكن تكوين رأى عام صحيح سديد حول المسائل الاساسية . وهى هل يجب علينا ان نحافظ فى التجارة والصناعة على مبدأ المنافسة الحقة . أو هل يجب أن تقوم الدولة بوظيفة الادماج والاحتكار والاشراف عليها ؟ ومتى حلت هذه النقط الهامة الأولية ، فسوف تهتدى القوى التشريعية والتنفيذية ، والمحاكم الى الحل السوى . وهذا مثال من امريكا ولن يكون من الصعب أن نجد له مثيلاً فى بلادنا . . .

كلمات بسيطة منار مشاكل حادة

ان الآراء والالفاظ التي تبدو ابسط ما يكون تنقلب فى آخر الامر أكثر الامور تشعباً ولو رأيت أى انسان فى شك من أمره فمثله تجربة هذه الالفاظ — الحرية والاخاء والمساواة .

وانه ليكون من حسن الحظ حقاً اذا لم يقف به الأمر عن تبين ان هذه المصطلحات جوفاً . لا من التعقيد فى الفكرة لا غير ، بل من جهة المعنى والتطبيق . فانه ولا شك يراها متناقضة الدلائل . وقد قال لنا خير الثقة إن للحرية مائتا تعريف . وقد قال لنكولن ، — Lincoln — اثناء الحرب الامريكية : « لم يتأت للعالم حتى الآن تعريف صالح للفظه » الحرية . بيد ان الشعب الامريكي الآن بحاجة الى هذا التعريف

القويم . وكلنا ينشد الحرية و ينادى بها . إننا في استخدام اللفظ الواحد لانرمي الى معنى واحد وشئ واحد ، وانا لنفترض ان لفظة « الحرية » قد تنصرف الى فعل كل انسان ما يشتهي فيما بينه وبين نفسه وتناج عمله . وقد تؤول عند البعض الآخر بانهم أحرار في التصرف مع الغير وفي ثمار أعمال هؤلاء كما يشاؤون . . ولن ننسى سر يعاقول « كافور » Cavour التاريخي « الكنيسة الحرة في الدولة الحرة » .

فهل هناك أسهل من هذه العبارة وانفذها الى الفكر وأجل رنيناً منها واطرب صدى في اذن السيلاسي ؟

غير ان هذه العبارة بعينها كثيرأما كانت مبدأ لارتفاع أصوات متنافرة ومنافرات من الجدل المستحكم المطرد المتواصل ، وفتاحة رنات من النزاع حادة غير متآلفة: والحادثة التاريخية التي تم بها انشاء مملكة إيطاليا وروما عاصمة لها ، لأجل شأننا واعظم خطراً ، من ان تحصر في نطاق قاعدة سياسية واحدة . وليس من السفه أن نصفها بأنها أهم حقيقة ظهرت في تاريخ أوروبا مدة قرنين أى منذ صلح « وستفاليا » ولهذين الحادتين الجليلين (أى تشييد مملكة إيطاليا و صلح وستفاليا) وجه واحد ذى أهمية كبرى . فكلاهما خاتمة تغير هام وتحول لا يمحى في حياة الدول والكنائس على حد سوى . وقد أثر كلاهما في نظام العلاقات بين السلطين ، السياسية والروحية ، بحيث غيرا من أسسهما ، وجددا من أنظمتها ، فكانت خاتمة نظام القرون الوسطي . في حين أنه مازالت ثمة حلقات ثقيلة باقية من السلاسل المحطمة تحيط كالنير بريقة الحكام المحررين .

الحرية الدينية

وان أقرب العبارات لنا وأكثرها حيوية في مناقشات هذا الزمن ، لهى الحرية الدينية . فهى مسألة مضطربة الاوار في فرنسا وإيطاليا و في ايرلندا وإيقوسيا ، وحتى في انكلترا لم تحب نارها تماماً حتى تنقلب رمادا في جوف التاريخ . ومع كثرة تداول هذا اللفظ بيتنا ، فانه يشمل معاني مختلفة تمام الاختلاف في مبنائها ومدلولها . وقد اهتدى « ليون الثالث عشر » الى اثنين منها في حرية الضمير ، احدها حرية الفرد في اتباع أوامر الله ، والآخر حرية تحديد الا ، شادات الالهية حسب تصوره وادراكه وهداه واختياره .

واحيانا تدل الحرية الدينية على الحرية غير المقيدة في التعبير عن الآراء والمناداة بها في المسائل الكهنوتية واسسها، كحقائق مسطورة. وتفسيراتها للمعتقدات الراسخة وتآلفها واتساقها او تناقضها وعدم توافقها تماما مع المعايير والاقيسة المسلم بها في دائرة العلوم الانبائية والنقد الجريء، اللذين يتسع نطاقهما كل يوم. وحيانا تدل على ادعاء هيئة لاهوتية حق فرض قواعد الزواج والتعليم والاجتماع لاهياء الشعائر الدينية، وغير ذلك مما يختار رؤساء الكهنوت فرضه على المخلصين والمتطوعين من الاعضاء والاتباع دون اعتبار النزعات الاجتماعية المتغلغلة في الانسان، او مقتضيات الدولة. وهل ينتهك مبدء الحرية السياسية حين يمنع البوليس موكبا من الكاثوليك من المرور في شوارع وستمنستر، ؟ او حين يطرد جمعا من الرهبان او الراهبات من الفرنسييس ؟ او حينما تقرر محكمة انكليزية (كما حصل منذ سنوات قلائل) الغاء وقف على جمعية تعتنق آراء مخالفة للمسيحية ؟ وما رأيك في القوانين الشديدة والقرارات الصارمة التي لا يحيد عنها، والتي اتخذت في العالمين، القديم والجديد، مدى قرن ونصف ضد جماعة الجزويت المهيبة. وقد كان الاغريق وبعض الشعوب الأخرى. في القرنين السابع والثامن، مغرمين في كفاحهم ضد السلطة العليا المتحكمة، بالالتجاء الى المصطلحات الدينية، مما توحى به الضغائن السياسية والطائفية. ولم تقلع بعض الجماعات ذات المدينة الراقية، التي لا تبعد عنا اكثر من الاستانة، عن اساءة استعمال هذه المدلولات. غير انه يمكننا القول، عن انصاف وبعد عن كل غلو وزهو، أننا في نظامنا الحكومي على الاقل، قد وصلنا في جيل واحد الى تغلغل قانون التسامح في أنظمتنا وسريانه في قوانيننا ومحاكمنا لا غير، بل اشربت به عاداتنا، ومألوفنا، وسبل تفكيرنا العادية. ولم يكن ذلك التحول ثمرة عدم المبالاة والتشكك وانتفاء العقيدة، بل هو أحد حركات التطور العميق الصامت، التي تجعل التاريخ احتملا غير مملول

اشكال الحكومة

وفي الميدان الشاسع للمسائل المتصلة باشكل الحكومة، تتوارد اكثر المصطلحات شيوعا في اضطراب واهام. وقد كتب السرجورج لويس، وزير المالية سنة ١٨٥٧ ومن اعلم الرجال الذين اسندت اليهم هذه الوظيفة، رسالة صغيرة فيما اسماه استخدام المدلولات السياسية وسوء استعمالها. والحق يقال انه لم يشع علينا من

نور الهداية اكثر مما اوصلنا اليه حوار اشرف فارس السبع قبل المسيح بخمسة قرون. (هيرودوت - الكتاب الثالث) وما في هذا الحوار درس يبدأ بأسئلة عن التقسيم الدقيق لاشكال الجمهورية والملكية ، حيث يكون لاغلبية الذكور تأثير قانونى مباشر فى تكوين الهيئة السائدة فى الامة . هناك الديمقراطية . فان لم يكن لهذه الاغلبية نفوذ قانونى مباشر ، فهناك الارستقراطية . وهل الديمقراطية هي النظام الذى بمقتضاه تحكم الاكثرية ، او كما افترض ارسطو هي النظام الذى فيه يحكم الفقراء ؟ او هل يكفينا ان نوجز ونختصر ونحمل الديمقراطية على انها نظام يفتح امام اولى المواهب السبل ويهيئ لهم طرق الحياة وغير ذلك من مقترحات التعاريف العامة والمصطلحات المفككة التى لا روابط بينها . بل هي غير قابلة للتطبيق ، فضلا عن أنها حلقات السلاسل تقيد الناس فى طرق من التفكير لا تستند الى المعقول ، كما لو كانت نصف شروق العالم لا تحدث من تلك المخادعة التى لا سبيل الى شفائها منها ، وهي اتخاذ لفظة والاصطلاح عليها بدلا من شئ محدودا وفكرة معينة . وقد انتشر لفظ (سوسيو كراسى) اى حكم الجماعة منذ زمن لويس . يبدان هذا الخليط المركب من اللفظ الذى يستدل به احيانا على التوافق المشكوك فيه ما بين اتساع نطاق الديمقراطية وبين البلوتوقراطية (حكم الاكثرية) لم يتأقلم فى بيئاتنا الفكرية بعد .

وقد وصفوا الجمعية الحاكمة عندنا بانها أم المجالس النيابية . وهذا التشبيه مما يثير فينا الفخار القومى الحق . بيد ان الفوارق فى السلطة ومنع هذه السلطة بين الاصل والفروع ، تحجب جميع أوجه الشبه . نخذ مجلس العموم مثلا . فهناك من كتاب الطراز الاول من يتكلم على مداولاته وقراراته وميول اعضائه وامتيازات سلطنة خلال الحرب مع مستعمراتنا الامريكىة أو ضد نابليون ؛ كما لو كان هذا المجلس مدة هذين الحادثين التاريخيين الجليلين ، هو نفس مجلس العموم الذى يحكمنا الآن — أى انه منتخب باصوات الشعب . والحقيقة ان اعضائه كانوا مرشحي عدد من الاشراف ذوى الامتيازات السياسية لا يزيدون على اصابع اليد عدداً .

(يتبع)